

فلسفة النهضة الحضارية عند " مالك بن نبي "
د. حمدان بوالصالح **جامعة الجلفة**
محمد بعبيطيش **جامعة الجزائر 2**
مخبر الجاليات والفنون والفلسفة المعاصرة

ملخص:

يناقش هذا البحث فلسفة النهضة الحضارية عند المفكر الجزائري "مالك بن نبي" باعتباره واحدا من أهم المفكرين العرب الذين قدّموا إفادات مهمة في حقل فلسفة التاريخ والحضارة، والتي ضمنها في مشروعه الفكري تحت مسمى "مشكلات الحضارة"، حيث يتطرق لرؤيته حول أصول الأوضاع الحضارية المتأزمة التي عاشها العالم الإسلامي في عصره ومن ثم البحث في الشروط التي يقترحها لتجاوز هذه الأزمة، وتحقيق نهضة حضارية متوازنة.

كلمات مفتاحية: "مالك بن نبي"، الحضارة، النهضة، الثقافة...

Abstract:

This research discusses the civilizational renaissance philosophy for the Algerian thinker "Malik bin Nabi" as one of the most important Arab thinkers who made important statements in the field of philosophy of history and civilization, which he included in his intellectual project under the name "problems of civilization", where he addresses his vision on the origins of the crisis of civilized situations Which the Islamic world lived in its era and then examining the conditions it proposes to overcome this crisis and achieve a balanced civilization renaissance.

Key words: Malik bin Nabi, Civilization, Renaissance, Culture

مقدمة:

برزت مشكلة التخلف كقضية مركزية في الفكر العربي مع الاستعمار الحديث للعالم العربي والإسلامي، حيث كان سؤال "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟" سؤالا محوريا في كتابات ونقاشات المفكرين العرب والمسلمين، وأصبحنا أمام أطروحات متعددة بتعدد الخلفيات الفكرية لأصحابها، حيث ظهرت أطروحات تربوية وأخرى سياسية أو اقتصادية...، إلا أنها تدل بهذا التعدد والاختلاف على عمق الأزمة التي أصابت العالم الإسلامي، وعن غياب الإجابة الشاملة التي ترقى إلى حل كلي يخرج من مأزقه الحضاري ويعيده إلى دوره الطبيعي في العالم. وقد كان المفكر الجزائري "مالك بن نبي" [1905-1973م] واحدا من المفكرين الذين أرادوا التعريف بالوضع الذي كان يعيشه العالم العربي والإسلامي في عصره، ومحاولة الإجابة على أسئلته الملحة. وقد شكّلت كتاباته حقا معرفيا مهما وسمه بعنوان كبير هو "مشكلات الحضارة"، حيث كان من المفكرين العرب المميزين الذين كتبوا نصوصا تعنى بتقويم الوضع الذي تعيشه الجزائر والبلاد الإسلامية، وعرضوا لمختلف مشكلاتها، إذ حفر في جوانبها المختلفة من خلال كتبه العديدة في هذا السياق مثل: "شروط النهضة"، "ميلاد مجتمع"، "الرشاد والنتية"، "مشكلة الأفكار في العالم الإسلام"، و مذكرات شاهد على القرن "العشرين" ... وهذا ما حملنا على أن نتناول فلسفة النهضة عنده تأملا في مناحي أطروحته الحضارية و محاولة لدراسة إفادته النازعة إلى وضع نموذج يدرس حركة التاريخ ودورة الحضارة وينفذ إلى المشكلة على حقيقتها ويجد الحلول المناسبة لتجاوزها، وذلك بالإجابة على السؤال الرئيسي: ما الشروط الضرورية لقيام نهضة حضارية متوازنة؟

أولاً: "مالك بن نبي" مفكر بين ثقافتين:

كان لعائلة "مالك بن نبي" الأثر البالغ في تكوينه، إذ سعت جاهدة على الرغم من قلة إمكانياتها المادية إلى توفير الفرص لتعليمه¹، وقد وجهته إلى التعليم القرآني الذي كان له دور كبير في بناء خطابه الثقافي والمعرفي على وجه العموم، إلا أنه عانى عقب إرساله إلى المدرسة الفرنسية من مشكلة ازدواجية التعليم، حيث كان عليه أن يختار بين التعليم العربي التقليدي أو التعليم الفرنسي الحديث، ووقع اختياره أخيراً على التعليم الحديث، وقد برر اختياره هذا بصعوبة التوفيق بينهما من حيث الوقت رغم محاولاته الكثيرة، إضافة إلى الفروق التي أحسها بين المدرستين سواء تعلق الأمر بالمعلمين أو بنوعية المعارف التي يتلقاها، إذ كانت المدرسة الحديثة توفر أجواء علمية متميزة خاصة من ناحية العلاقة بين المعلمين والمتعلمين، وهو ما ترك أثراً في نفسية "مالك بن نبي"². إضافة إلى هذا الانجذاب نحو التعليم الحديث كان للصراع الثقافي الذي تشهده مدينة "تبسة" أين يعيش "مالك بن نبي" دور في إثراء رصيده الثقافي والفكري، فقد تجاذب الحياة الثقافية هناك تياران رئيسيان، تيار تراثي يمثل الماضي العربي الإسلامي، وتيار عصري يمثل الغرب، وهذا ما عبّر عنه بقوله: "كانت تبسة عبارة عن مركز ثقافي تلتفي فيه عناصر الماضي بطلائع المستقبل، وبالطبع فإن مداركي كانت تنمو متأثرة بهذين التيارين"³، وقد تجسدت هذه الازدواجية الثقافية التي نهل منها "مالك بن نبي" في ما كان يتلقاه من تعليم سواء من المعلمين العرب أو الأجانب، ففي الوقت الذي استفاد من المعلمين الأجانب في الإطلاع على الثقافة الغربية من خلال الكتب والروايات، وفي تنمية الحس النقدي والتخلص من العقلية الخرافية التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري. أسهم المعلمون العرب في ربطه بثقافته الشرقية وتعريفه بتاريخها بما يحمله من أمجاد، وإطلاعه على حاضرها وما يعيشه من مآسي وآلام⁴. إضافة إلى ما تلقاه "مالك بن نبي" من تعليم، كان لجمعية العلماء المسلمين دور في توعيته بشؤون أمته، حيث تعرّف من خلالها على نوايا المستعمر الفرنسي في طمس هوية المجتمع الجزائري، وغرس الثقافة الغربية في نفوس الشباب الجزائريين⁵.

بنفس الصورة ظلت المقابلة بين نمطي الثقافة حاضرة في مسيرة "مالك بن نبي" فعمله في مدينة "أفلو" في أعماق الجزائر حيث لم يتمكن الاستعمار أن يفعل فعلته في تغيير عادات مجتمعه، وقرّ له فرصة لمشاهدة ومعايشة قيم المجتمع الجزائري الصافية والأصيلة. ثم إنّ انتقاله بعد ذلك إلى منطقة "شلغوم العيد" التي كان المستعمر قد غير كثيراً في بنيتها الثقافية⁶، أتاح له إجراء مقارنة بين ظروف المنطقتين.

وقد كان لظروف انتقاله إلى فرنسا كذلك دور في تكوينه الفكري وتحديد مواقفه، حيث تلقى هناك صدمة أيقظته ونبهته إلى حجم الكراهية والعنصرية التي يكنها المستعمر الفرنسي والغرب عموماً لأبناء المستعمرات، إذ قدم طلباً للالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية هناك، لكن طلبه قوبل بالرفض، كما أن تواجده هناك كان فرصة للاطلاع على ثقافة المجتمع الغربي، فتعرف على روحها وفكرها، وقد ولج هذه الثقافة من خلال، تعرفه على الثقافة المسيحية وتواصله مع بعض الجمعيات المسيحية هناك، إضافة إلى زواجه من فرنسية وتعرفه على محيطها⁷.

كما أسهمت قراءاته المتنوعة في الإطلاع على التراث الفلسفي الغربي والتراث الإسلامي في توجهاته الفكرية، مما ساعده على صياغة منهجه والتأسيس لفلسفته حول التاريخ والحضارة، فقد كان "مالك بن نبي" قارئاً متميزاً للفلسفة الغربية، خاصة منها ما تعلق بفلسفة التاريخ، بداية من الفلسفة اليونانية، مروراً بالفلسفة المسيحية وفلسفة عصر النهضة، وصولاً إلى الفلسفة الحديثة والمعاصرة، كما ركز "مالك بن نبي" على قراءة التراث الفلسفي الإسلامي في هذا الباب من المعرفة فقرأ تراث "بن خلدون" و"المسعودي"⁸ وغيرهم من المفكرين المسلمين، وهذا ما فتح له نافذة نحو البحث الفلسفي حول التاريخ والحضارة.

هذه العوامل مجتمعة جعلت من "مالك بن نبي" مفكراً مطلعاً على حضارتين مختلفتين، ورسمت المسار الذي سيسلكه في بحثه عن الخروج من الأزمات التي يعيشها مجتمعه المسلم، ومكنته من اكتساب الأدوات المناسبة للبحث، إذ يلحظ الباحث في كتابات "مالك بن نبي" دقة كبيرة في تحديد المفاهيم واستعمال المصطلحات، ومنحته الحصانة الثقافية والروح النقدية، فبات المفكر المستنير بحضارته الإسلامية المسلح بالعدة النقدية، فلم يتجه إلى ما اتجه إليه الكثيرون بدروشتهم أو بزهدهم في البحث عن حلول لأزمات مجتمعاتهم.

ثانياً: الوضع الحضاري المتأزم:

كانت الجزائر مستعمرة، وكذلك الحال بالنسبة لجزر الأقطار العربية والإسلامية، حيث أرقت هذه الظروف "مالك بن نبي" الذي حمل همّ أمته وسائر أفكاره وجهده محاولات التخلص من المستعمر. وقد كانت تلك الفترة تموج بنقاشات وحوارات تدور بين المفكرين والمهتمين بتغيير الأوضاع في العالم الإسلامي، خاصة في المؤتمرات الإسلامية في فرنسا والمشرق العربي. وقد تناولت في أغلبها أسئلة لم تنفك عن السؤال المركزي الذي "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟" هذا السؤال الذي كثرت المحاولات الفكرية لإيجاد الإجابة المناسبة له، وتعددت هذه المحاولات بتعدد المذاهب الفكرية والانتماءات الدينية والسياسية، فتراوحت بين الثورية الإصلاحية، إلا أنه ظل عصياً على الإجابة⁹. لهذا فقد حاول "مالك بن نبي" أن يجيب على هذا السؤال أو بالأحرى سؤال النهضة بطريقة أكثر استجابة لتطلعات عصره، وأقدر على تجاوز المشكلات التي وقعت فيها المحاولات السابقة عن تجربته، والتي تجسدت كما أشرنا في محاولات تطبيقية تدرك جانباً وتغفل جوانب أخرى من المشكلة. لهذا كان مشروعه محاولة للوصول إلى إجابة أكثر دقة ووضوحاً، وبطريقة شمولية، تتسم بروح القانون، وتسعى إلى تتبع السنن التي تحكم سير الحضارات، ولا تقتصر على إجراءات مستعجلة، أو منفعة مع الأحداث بمنطق الفعل ورد الفعل، وترتفع من الجزئي إلى الكلي، فنكتسب صرامتها، وفعاليتها. لهذا فقد قدم رؤيته من زاويتين، حيث بدأ بدراسة الواقع الذي يعيشه مجتمعه، بما له من جذور في التاريخ، ثم تطلّع إلى حلول في المستقبل وفق منطق السنن الذي يتبعه في كتاباته دائماً.

قدم "مالك بن نبي" ملاحظاته حول الوضع المتأزم الذي وصل إليه المجتمع الإسلامي وهي تمثل العناصر التي حكمت الواقع الذي وصلت إليه البلاد، فالشعوب الإسلامية كانت أمام صدمة الغزو الاستعماري خلال القرن التاسع عشر، فكان دورها دفاعياً ألياً لا يمتد إلى أصل المشكلة وأسبابها، فنتج عن ذلك ظهور الأدوار البطولية التي جسدتها شخصيات مثل "الأمير عبد القادر" في الجزائر وال"أمير عبد الكريم الخطابي" في

الريف المغربي، وقد امتدت هذه المرحلة من بداية الغزو الاستعماري إلى الربع الأول من القرن العشرين، أي إلى لحظة عبد الكريم الخطابي في المغرب¹⁰، وكانت الرابطة القبلية هي دعامة هذه المرحلة، إذ مثلت الرابطة الوثيقة التي تؤهل الرجال لأداء أدوار حماسية وتدفعهم إلى دعم الأبطال ومرافقتهم، لكنها لحظة من التاريخ سرعان ما توارت على غير ما كان يرجى منها وإن خُدت أسماء أبطالها في التاريخ¹¹.

أمّا على الصعيد الفكري والسياسي فقد شكلت لحظة "جمال الدين الأفغاني" بداية الدعوة إلى النهضة، وهي المرحلة الأولى لليقظة، إذ أسهمت دعوته في خلق "ظاهرة اجتماعية"، وكان لها وقع كبير على الناس¹². فبذرت فكرة النهوض في نفوسهم، ونبذت التقاليد البالية، وحثّت على أساليب جديدة في الحياة، وكان من بين أهم تأثيراتها عودة الحاسة الاجتماعية والتحول من بطولة الفرد إلى بطولة الجماعة، وإلى تنوير الفكر بخلاف المرحلة الأولى التي غلبت عليها العاطفة والحماسة.

وكان من امتدادات هذه الدعوة وثمارها ظهور الفكرة الإصلاحية في الجزائر ابتداء من 1925م¹³، وقد شكّلت أكثر الحركات الفاعلة آنذاك لأنها الأقرب إلى النفوس إذ أدركت بعدا نهضويا قرآنيا معجزا يتمثل في مبدأ التغيير من النفس أولا، هذا المبدأ الذي يعتبر شرطا ضروريا لأي تحول اجتماعي رشيد، لكن "مالك بن نبي" يأخذ على الحركة الإصلاحية التي بلغت أوجها في تلك الفترة، شعورها بالنقص إزاء قادة السياسة، وشعورها بالحاجة لحماية السياسيين من ويلات الحكومة، وهذا ما أدى بها إلى الانحراف عن أهدافها لأسباب تضاد المنهج، إذ اندفعت وراء سراب السياسة فشاركت في مؤتمر باريس سنة 1936م، وبهذا دخل النهج السياسي الانتخابي قاموس المجتمع، وهو الوضع الذي عاشته كل الأقطار العربية ففرقت المجتمعات إلى شيع وأحزاب، فعادت بذلك الأمة إلى النوم مجددا¹⁴.

ومن الملاحظات التي رصدتها "مالك بن نبي" عن الواقع المتأزم، ما أسماه "الوثنية" التي كانت تعيشها الجزائر إلى غاية 1925م، والتي تجسدت في انغماس الناس في الركض وراء مظاهر الدروشة، لكن الحركة الإصلاحية أخدمت نيرانها، إذ يقول: "وبالفعل فقد خدمت نيران أهل الزردة، وزالت عن البلاد حمى الدراويش، وتخلّصت منها الجماهير بعد أن ظلت طول خمسة قرون ترقص على دقات البنادير، وتبتلع العقارب والمسامير مع الخرافات والأوهام"¹⁵. وقد استمر هذا التغيير الذي طرأ على المجتمع بفضل الحركة إلى غاية الانحراف الذي حدث للحركة الإصلاحية سنة 1936 م. وقد كان الإصلاح حطّم الزوايا والقباب من دون الوثن، فقد تواترت الفكرة عن العقول وحلت محلها الوثنية التي تتكلم اليوم وحدها، ونصبت لها المنابر فأغفل الناس واجباتهم وبالتالي يمكن القول أن الميكروب السياسي ورث ميكروب الدروشة¹⁶. وبهذا أصبحت الحركة الجزائرية منقادة للوثن بدل أن تكون منقادة للفكرة.

وإذ يقدّم "مالك بن نبي" هذه الملاحظات حول أزمة مجتمعه الجزائري والمجتمعات الإسلامية قاطبة، فإنه يخلص إلى أن الاستعمار من النفس ذاتها إذ تقبل ذل الاستعمار وتمكن له في أرضها، وهو ليس من عبث السياسيين وأفعالهم. ولكي يحدث الانفكاك منه لا بد من التخلص من الروح المؤهلة له أو ما أطلق عليه "القبالية للاستعمار"، وهذا يتطلب تحولا نفسيا يؤهل الفرد للقيام بالوظيفة الاجتماعية، ويحتاج إلى سياسة تدرك قواعد الاجتماع وأسسها، ولا تقوم على العاطفة في تسيير شئونها¹⁷. وهنا يخرج "مالك بن نبي" بقاعدة

مفادها "الحق ليس هدية تعطى، والشعب لا ينشأ دستور حقوقه إلا إذا عدل وضعه الاجتماعي المرتبط بسلوكه النفسي. وإنما لشرعة السماء: غير نفسك، تغير التاريخ!"¹⁸.
ثالثا: أصل المشكلة:

لقد كان من ثمار الدعوات الإصلاحية أن بدأ العالم الإسلامي يشعر بتخلفه، وبدأت مرحلة جديدة في مساره هي "مرحلة النهضة"، لكن "مالك بن نبي" يضع ملاحظات على هذه الحالة، ومنها، أن الشعور بالمرض لا يعني بدهاءة الدواء، فعلى الرغم من أن الشعور بالتخلف نتيجة موفقة للجهود المبذولة من أجل النهضة، إلا أنها في نظره نتيجة خائبة لتطور استمر خلال هذه الحقبة دون أن تشترك الآراء في تحديد أهدافه واتجاهاته¹⁹. وبرر هذا الإخفاق بغياب التحليل المنهجي للمرض، وكذلك تعدد الآراء والتشخيصات وتعدد التوجهات، فالسياسي مثل "جمال الدين الأفغاني" يرى أن المشكلة سياسية تحل بوسائل سياسية، ورجل الدين "محمد عبده" يرى أن المشكلة تحل بإصلاح العقيدة والوعظ... الخ، ويرى "مالك بن نبي" أن أطروحات هؤلاء كلها أحاديث عن مشكلات جزئية وعن أعراض فقط، دون التعرف على المشكلة الحقيقية أو محاولة معرفتها كما يجب.

وبما أن العالم الإسلامي المريض لم يدرك حقيقة مشكلته كما يجب، فإنه اتجه في هذه المرحلة إلى استيراد الحلول من الحضارة الغربية باعتبارها نموذج التفوق الحضاري في عصرنا، وهو ما أطلق عليه "مالك بن نبي" مصطلح "إرهاصات" أو "بادرة" حضارة²⁰، لكنه توجه نحو تحصيل منتجات الحضارة الغربية فقط. فبمقارنة مع تجارب الشعوب الأخرى كاليابان مثلا، يتضح الجهد السلبي للعالم الإسلامي. وذلك لأن المقياس العام في عملية الحضارة هو "الحضارة هي التي تلد منتجاتها"، ولا يجب قلب المعادلة لأنها ستتحول إلى تكديس منتجات الآخرين، وهذا يلزم عنه عملية مستحيلة كماً وكيفاً، فمن ناحية الكم، تجميع منتجات الآخرين يؤدي إلى التشيئ (الحضارة الشئيئية)، والتكديس، وهذه حالة حضارة تختلف عن النماذج الحقيقية للتحضر. أما من ناحية الكيف فإن أي حضارة لا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها وثروتها الذاتية وأذواقها، فكل ما يأتينا هو بلا روح.²¹

إن، الأزمة حسب "مالك بن نبي" ليست متعلقة بمشكلة جزئية من مشكلات الحياة لوحدها سواء كانت دينية أو سياسية أو اقتصادية، لهذا لا يمكن أن تعالج بحلول جزئية ولا باستيراد منتجات الحضارة الغربية جاهزة. ولذلك فقد ردّ مشكلات إنسان عصره كلها، إلى مشكلة الحضارة، فأراد البحث في دواعي قيامها وعوامل تأثرها، وأسباب انهيارها، فكان عملة يتميز بكونه علميا يفتش عن الحقائق بدقة، وفلسفيا يملك فيه من التصورات ما يساعده على فهم المشكلات ومناقشتها، ولأن المشكلة حضارية بالأساس، و"بن نبي" يحاول إيجاد حلول للتخلف والانحطاط الذي يعيشه مجتمعه، فقد حاول البحث في سبيل نهضة وإقلاعه حضارية حقيقية، وذلك بالإجابة على السؤال: ما هي الشروط الضرورية لقيام نهضة حضارية متوازنة؟.

رابعا: مفهوم الحضارة وأطوارها:

إن معرفة "مفهوم الحضارة" عند "مالك بن نبي" يعتبر مدخلا ضروريا لفهم فلسفته الحضارية، لأنه يعد الركيزة الأساسية التي يقوم عليها فكره. فلكي يجيب عن السؤال المركزي لمشروعه الحضاري: "ما الشروط الضرورية

لقيام نهضة حضارية؟" قدّم "مالك بن نبي" مفهوما للحضارة يختلف عن المفاهيم الشائعة التي تقوم على المقابلة بين البداوة والتمدن، وذلك من ناحيتين، من حيث وظيفتها، ومن حيث تركيبها أو تشكلها. فهي تعني عنده من ناحية وظيفتها: "مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل عضو من أعضائه في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار النمو".²² وهذا يعني أنّ الحضارة في نظره ترتكز على الحقائق النفسية للأفراد، وعلى مدى امتلاكهم للعدة المعنوية والمادية التي تمكنهم من الانخراط في البناء الحضاري، وعلى مدى وعيهم باللحظة التي يعيشون فيها. أمّا من ناحية التركيب فإنها ترتد إلى عناصر ثلاثة هي: الإنسان والتراب والوقت، صاغها في المعادلة: (الحضارة = الإنسان + التراب + الوقت). وهذه العناصر الثلاث هي عدة لأيّ بناء حضاري، وهي ملك على الشياخ للإنسانية جمعاء، لكن ما يخلق الانسجام بين هذه الدعائم هو الفكرة الدينية، فالباعث الروحي هو الثابت في أيّ بناء حضاري²³. ولهذا نجد "مالك بن نبي" يقول في كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي": "إنّ حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ".²⁴

إنّ وعي الإنسان باللحظة التاريخية التي يعيشها، يتطلب إدراكه للتغيّر الذي يحدث في التاريخ وعوامل ازدهار وانحطاط الحضارات، لكي يتعرف على طرائق البناء²⁵، وذلك مصداقا للآية القرآنية: "سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا"²⁶، ولذلك فإن "مالك بن نبي" قدّم بالاعتماد على التحليل النفسي تصورا لمسار الحضارة خلال التاريخ، حيث تمر بأطوار ثلاث، وهي طور الروح، وطور العقل، وطور الغريزة:

يعتبر طور الروح، طور الإفلات من سيطرة الغرائز، والإنسان الذي يقف في نقطة الصفر منه هو إنسان فطري طبيعي تتولى الفكرة الدينية تقنين غرائزه وتنظيمها، أي أنه يدخل بذلك قانون الروح، فيزيد عطاءه، ويندفع إلى غاياته بأكبر قدر ممكن، وإلى أداء واجباته على أفضل ما يكون الأداء. ويؤرخ "مالك بن نبي" لهذه المرحلة بالنسبة للحضارة الإسلامية من بداية البعثة النبوية إلى موقعة صفين²⁷. وهي اللحظة التي توقفت فيها توجيهات الروح، لينتقل المجتمع إلى استثمار المخزون المادي والمعنوي، حيث تنشأ المشاكل المحسوسة نتيجة التوسع، وتطرأ ضرورات جديدة، وهذا هو منعطف العقل، الذي تتوفر فيه الإمكانيات المادية والتحكم في الوسائل، ويؤرخ لهذه المرحلة من معركة صفين إلى لحظة "ابن خلدون" أو عصر ما بعد الموحدين. ثم تتوفر الإمكانيات المادية وعدم التحكم فيها تتحرر الغرائز تدريجيا، فيتوقف المجتمع عن تعديل سلوك الأفراد، وهذا يعني أنه حدث نقص في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية، ومنه يبدأ الطور الثالث من أطوار الحضارة الذي يمتد إلى وقتنا الحالي²⁸.

ويسمى الطور الذي يكون قبل بدأ الحضارة بطور ما قبل الحضارة، والطور الذي يلي نهاية الدورة الحضارية، بطور ما بعد الحضارة. ويجب ملاحظة أنّ إنسان طور ما بعد الحضارة ليس هو ذاته إنسان ما قبل الحضارة، فإنسان ما بعد الحضارة هو إنسان متفسخ حضاريا سلبت منه الحضارة تماما، أما إنسان ما قبل الحضارة فهو إنسان الفطرة الذي لم ير حضارة من قبل، ولهذا فإن مجتمع ما قبل الحضارة يكون صفحة

بيضاء مستعدا لاستقبال الفعل الحضاري والمساهمة فيه. بينما يحول المخزون النفسي المشوه لدى إنسان ما بعد الحضارة دون مساهمته في البناء، وهذا ما يقتضي إفراغه من العناصر المشوهة وإعادته ملئه بعناصر حضارية جديدة²⁹. والعالم الإسلامي قد دخل حالة الأزمة ويعيش وضعا متخلفا يمثل "طور ما بعد الحضارة" فما السبيل إلى الخروج من أزمتة انبعاث مشروعه الحضاري من جديد؟.

خامسا: إستراتيجية البناء الحضاري:

إنّ التغيير هو جوهر التجديد والبناء الحضاري في مسيرة أية أمة تعمل على مشروع البناء الحضاري، فهي تجدد أولا لنقل الإنسان إلى طور الحضارة، وتجدد في مرحلة الحضارة سعيا إلى التحسين والتطوير. لكن إذا انتشر الفساد فإنه يضعف شبكة العلاقات الاجتماعية، فتفصل بذلك عن القيمة العليا التي تبث فيها حيويتها، وتعطيها فاعليتها، فيدخل المجتمع دور الانحطاط والتخلف. هذا الوضع يستدعي العمل على إيجاد إستراتيجية تبنى على الإمكانيات والغايات، وتأخذ على عاتقها الجانبين الفردي والجماعي، داخل المنظومة التاريخية والفكرية، بتحريك من الباعث الروحي الذي يدفعها إلى استغلال الموارد. ولهذا فإن "مالك بن نبي" يرى أن المخرج من مأزق التخلف الحضاري، يبدأ من عناصر الحضارة الثلاث الإنسان والتراب والوقت، باعتبارها عدة لأي بناء حضاري، وبما أنها كذلك، فإن المشكلات الرئيسية للحضارة تتعلق بهذه العوامل الثلاث، فنكون أمام مشكلات أولية هي مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. يتم تجاوزها بأن يجد الإنسان له مكانا في التاريخ ويتوافق مع سيره، وأن يستثمر موارد الطبيعة مهما كانت درجة إتاحتها داخل إقليمه، وعلى المجتمع أن يقدّس الوقت، ليعطينا هذا المركب "حضارة". وهذا ما يعبر عنه "مالك بن نبي" بقوله: "يجب أن نضع رجالا في التاريخ مستخدمين التراب والوقت في بناء أهدافهم"³⁰.

إنّ الإنسان هو الأساس في بناء الحضارة، حيث يؤثر بفكره وبعمله وبماله، ويترتب عن ذلك الحاجة إلى توجيه الثقافة، وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال. والثقافة عند "مالك بن نبي" هي نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، وبهذا يمكن أن يقاس الفرق الضروري بين الثقافة والعلم، فيعرفها على أنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرسائل أولى في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"³¹. ومن خلال هذا المفهوم للثقافة يتخذ الشعب دستورا لحياته المثقفة، يرتبط بأربعة عناصر هي:

- عنصر الأخلاق لتكوين الصلوات الاجتماعية، وقد يظهر في صورة الرابطة الدينية التي تجمع أفراد المجتمع وتزيد من تماسكهم كما حدث بين المهاجرين والأنصار في مجتمع المدينة.³²
- عنصر الجمال لتكوين الذوق العام فالأفكار والذوق العام لا يتولدون إلا من الصور المحسوسة والمشهودة في الإطار الاجتماعي، والتي تنعكس في نفس من يعيش فيه بحيث تصبح صورا معنوية يصدر عنها تفكيره، فالمجتمع الذي يحمل بين أرجائه صورا قبيحة لا بد وأن يظهر أثرها في أفكاره وأعماله ومساعيه.³³
- منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام، إذ أنّ العقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه غير موجود.³⁴

- الصناعة الموائمة لكل نوع من أنواع المجتمع، والحديث عن الصناعة هنا ليس عن أهميتها بالنسبة للفرد باعتبارها وسيلة كسب، بل الحديث عنها بالنسبة للمجتمع كوسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه.³⁵ إن الثقافة بعناصرها السابقة، ترسم نمط الحياة في أي حضارة كانت، إلا أنّ حياة المجتمعات تتأثر بعنصري الجمال والأخلاق أكثر من العنصر المادي (الصناعة)، فالمجتمع ينتج بذورا أخلاقية وجمالية نجدها في عرفه وعاداته وتقاليده، أي في ثقافته في أوسع معاني الكلمة، وكلما تطورت الثقافة كانت البذور الأخلاقية والجمالية أقرب إلى الكمال حتى تصبح قانونا تقوم عليه حضارة المجتمع. يمكن صياغته وفق المعادلة الرياضية³⁶:

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه حضارة.

وبذلك يختلف التوجه الثقافي للإنسان الصانع للحضارة نسبة إلى ترتيب خاص يقدّم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على الذوق الجمالي في سلم القيم الثقافي. وحينئذ يكون نشاط الأفراد مدفوعا إما بدوافع أخلاقية أو بدوافع جمالية.³⁷

هذا التوجيه الثقافي لا بد أن يظهر في "العمل" باعتباره الحلقة الثانية من مشكلة الإنسان، والمهم في المجتمع الناشئ هو الناحية التربوية في العمل لا الناحية الكسبية، بمعنى أن توجيه العمل في مرحلة تكوين المجتمع تعني سير جهود الجميع مهما كان نشاطهم في اتجاه واحد بصورة تؤثر في التاريخ وتغير وضع الإنسان وتخلق بيئته الجديدة.³⁸

ويعتبر المال كذلك عنصرا مهما في عملية البناء الاقتصادي والاجتماعي، ولذلك فإنّ رأس المال يتطلب توجيهها حتى يكون في تناغم مع توجيه الثقافة وتوجيه العمل من حيث الغايات والأهداف، لا يتصل بالكم بل بالكيف، فالغرض أن تصبح كل قطعة مالية متحركة متقلبة تخلق معها العمل والنشاط وتخدم البناء الحضاري، أما الكم فإن له الدور الثاني دور التوسع والشمول.³⁹

هذا عن مشكلة الإنسان، أما عن التراب فإن "مالك بن نبي" لا يبحث في خصائصه وطبيعته، ولكن يتكلم عن التراب من حيث قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، وحضارتها متقدمة، يكون التراب غالي القيمة يوظف بالشكل الأمثل ويستفاد منه على أكمل وجه في البناء الحضاري، وحيث تكون الأمة متخلفة - كما هو الحال اليوم - يكون التراب على قدرها من الانحطاط، وذلك بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه.⁴⁰

وتمثل مشكلة الزمن (الوقت)، مشكلة جوهرية إضافة إلى مشكلتي الإنسان والتراب، فالزمن يرتبط بالتاريخ، وهو جوهر الحياة الذي لا يقدر بثمن، ولا يتحدّد معنى التأثير الإنساني في الإنتاج ولا يتحدّد معنى الوجود الإنساني إلا بتحديد فكرة الوقت ووعي قيمته. وإن لم ينتبه المجتمع لعامل الوقت والتفت عنه للقضايا العابرة والكسل، والكلام المطرب، فإنه سيبقى خارج إطار الحضارة، غير مدرك لما يفوته من إمكانات الإنتاج والعمل والبناء، والأداة الوحيدة التي تغرس في أفراد المجتمع قيمة الوقت وتثبتها في سلوكهم هي التربية العملية.⁴²

إنّ هذه العُدّة الحضارية إذا تحقّق لها التوجيه المناسب بدافع من الفكرة الدينية مكّنت من صناعة التاريخ والخروج من حالة الأزمة الحضارية إلى حالة الانبعاث الحضاري من جديد، وصناعة التاريخ، وهي غاية كل مجتمع يسعى إلى الخلاص من كل ما يدفعه إلى الخلود لواقعه المتخلف، ولهذا يقول "مالك بن نبي":
"...التاريخ ليس ما تصنعه الصدف ولا مكائد الاستعمار ولكن ما تصنعه الشعوب ذاتها في أوطانها".⁴³

وصناعة التاريخ كما يرى، تتم وفقا لتأثير عناصر ثلاث: عالم الأفكار، عالم الأشخاص، و عالم الأشياء. إذ يتعلق عالم الأشخاص بشبكة العلاقات الاجتماعية ويرتبط به عالما الأفكار والأشياء⁴⁴. فإذا دخل المجتمع مرحلة التفكير وانهارت شبكة علاقاته الاجتماعية، انحدر إلى الفردية، وانتهى إلى خلل يذهب تناغمه، مما يجعل سعي أفرادها متجها إلى البرهنة على جدوى أفكارهم وإثبات وجودهم على حساب الجماعة، وهنا يكون المجتمع في حالة من الإحباط واللافاعلية⁴⁵. وحتى إن تعلق هذا الخلل بعالم الأشخاص، إلا أنّه ينعكس على عالمي الأفكار والأشياء، فهذه العوالم مرتبطة ويتأثر كل منها بالآخر. لكن في حال حدوث مشكلة فيما يخص عالم الأشياء كحدوث الكوارث مثلا، فإنّ عملية التعويض والتدارك أيسر، وممكنة في حال سلامة عالم الأفكار ومثانته، فإذا ما فقد عالم الأفكار، فذلك إيذان بالخراب الحقيقي، مع أنه وبالرغم من سلامة عالم الأفكار قد تحدث الكوارث لوجود خلل في شبكة العلاقات الاجتماعية، ففاعلية الفكر متعلقة بعالم الأشخاص هي الأخرى. وهذه الفعالية التي تكون على المستوى الفردي و تكون في إطار شبكة العلاقات الاجتماعية توفر الحركية الاجتماعية التي تتيح المضي إلى عمل جماعي خال من التنافر والتناقض.
 هكذا يكون "مالك بن نبي" قد قدم تصورا يظهر العلاقة الوثيقة بين ما هو اجتماعي وما هو ثقافي، فالجماعة تخضع لثقافة تجعلها مختلفة عن غيرها، وتوفر لها التميز ضمن محيطها. وهذا يؤكد أن الثقافة بعناصرها الأخلاقية والجمالية والعملية هي الدعامة لأي بناء حضاري.

خاتمة:

لقد قدّم "مالك بن نبي" خدمة بالغة الأهمية في حقل فلسفة التاريخ والحضارة، حيث كتب العديد من النصوص التي تناولت مشكلات الحضارة. وهي نصوص تظهر سعيه إلى تحويل موضوع الحضارة، وبالذات فكرة الانبعاث الحضاري، موضوعا للتفكير الفلسفي، وذلك وفق مقتضيات عصره، ومتطلبات وتحديات مرحلته. فترك تراثا زاخرا بالتجربة، ومستندا إلى مناهج دقيقة في الوصف والتحليل، والخلاص إلى نظريات تتسم بشكل يمكن أن نطلق عليه قانونا يرجع إليه في تفسير حركة التاريخ والحضارة.

إنّ تراث "مالك بن نبي"، أو لنقل فلسفته الحضارية، شكّلت ولا تزال موضوعا دسما للتحليل والدرس عند الباحثين في التاريخ والحضارة وكل فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية بما تتضمنه من مفاهيم ورؤى تتجاوز لحظة "مالك بن نبي" في المكان والزمان، إذ ترتفع من مستوى المحلية إلى مستوى يشمل كل العالم الإسلامي، وتمتد في الزمان من عصره إلى عصرنا الحالي، حيث يتواصل الكشف عنها إلى اليوم، و تتأكد صلاحيتها إلى اللحظة. ولهذا يتطلب البحث في نصوص "مالك بن نبي"، بذل جهود استثنائية تعتمد أسلوب الحفر والتقيب في جوهر الأطروحات الواردة في نصوصه، وتحديد طبيعة منهجه. وذلك للوقوف على الأسرار التي تنطوي عليها كتاباته واستثمارها على الشكل الأمثل.

قائمة المراجع:

- 1 مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، دمشق: دار الفكر، 1984. ص ص 172-173.
- 2 المرجع نفسه. ص ص 24-25.
- 3 المرجع نفسه. ص 28.
- 4 المرجع نفسه. ص ص 47-64.
- 5 المرجع نفسه. ص 130.
- 6 محمد الهادي الحسني: مالك بن نبي: لمحات من حياته، وقبسات من فكره، الجزائر العربية <http://algeriearabite.canalblog.com/archives/2018/10/19/36796681.html> ، تاريخ الاسترداد 25 12، 2019.
- 7 مذكرات شاهد القرن. ص 223.
- 8 محمد جلوب الفرغان: حضور الفلسفة الغربية في الفكر العربي المعاصر: مالك بن نبي أنموذجاً، مجلة أوراق فلسفية جديدة، المجلد الثاني، العدد الثالث، صيف 2011. <https://philospaper.wordpress.com/2011/07/04/222/> ، تاريخ الاسترداد 25 12، 2019.
- 9 محمد الهادي الحسني، مرجع سابق.
- 10 مالك بن نبي: شروط النهضة - دمشق: دار الفكر، 1987. ص 19.
- 11 المرجع نفسه، ص 20.
- 12 المرجع نفسه، ص 22.
- 13 المرجع نفسه، ص 24.
- 14 المرجع نفسه، ص ص 25 - 26.
- 15 المرجع نفسه، ص 28.
- 16 المرجع نفسه، ص 35.
- 17 المرجع نفسه، ص 31.
- 18 المرجع نفسه، ص 32.
- 19 المرجع نفسه، ص 40.
- 20 المرجع نفسه، ص ص 41.
- 21 المرجع نفسه، ص 44.
- 22 مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دمشق: دار الفكر، 1987م. ص 59.
- 23 مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق. ص 51.
- 24 مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د. بسام بركة، و د. أحمد شعبو، دار الفكر المعاصر بلبنان ودار الفكر بسوريا، طبعة 2002م، ص 41.
- 25 محمد الهادي الحسني، مرجع سابق.
- 26 الآية 23، سورة الفتح.
- 27 مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص 67-68.
- 28 المرجع نفسه، ص 69.

- 29 المرجع نفسه، ص 71.
- 30 مالك بن نبي: تأملات، دمشق: دار الفكر، ط 1، 1979م. ص 197.
- 31 مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 83.
- 32 المرجع نفسه، ص ص 88-89.
- 33 المرجع نفسه، ص 91.
- 34 المرجع نفسه، ص 95.
- 35 المرجع نفسه، ص ص 97-98.
- 36 المرجع نفسه، ص ص 100-101.
- 37 المرجع نفسه، ص ص 103-105.
- 38 المرجع نفسه، ص ص 107-108.
- 39 المرجع نفسه، ص ص 109-113.
- 40 المرجع نفسه، ص 131.
- 41 المرجع نفسه، ص 135.
- 42 المرجع نفسه، ص 141.
- 43 مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دط، دار الفكر، دمشق، 2002، ص 68.
- 44 مالك بن نبي: تأملات، مرجع سابق. ص 196.
- 45 مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق. ص 102.